

## الشعر وحققيقته عند ابن رشيق القيرواني

الأستاذة: غنية بوضياف  
قسم الآداب و اللغة العربية  
جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)

### Résumé :

Cette étude a pour objet les efforts fournis par IBN RACHIK pour déterminer la notion de poésie d'une façon détaillée et claire suivant une méthodologie stricte en mettant l'accent sur la notion de poésie, les composants et la mission.

### ملخص:

هدفنا من هذه الدراسة إبراز الجهود العلمية التي بذلها ابن رشيق القيرواني من أجل توضيح صناعة الشعر على نحو مفصل ودقيق ووفق منهجية لا تقل شأنًا عن منهجية سابقه، حيث حاولنا الكشف عن تصور متكامل لفهم ناقدنا - ابن رشيق - وبلاغته للشعر من حيث مفهومه ومكوناته ومهمته.

إنّ الفرق كبير بين بروز ظاهرة التفكك السياسي في مسرح الدولة العربية الإسلامية على تفاوت في مستوياته بين المشرق والأندلس والمغرب و ظهور أصوليات فكرية وعلمية مختلفة، ولقد ظهر هذا النزوع جليا في الأندلس والمغرب، حيث تعد نظرية الشعر، ووضع حد له من بين أولى الأمور التي يتعين على الناقد الأدبي القيام بها في معرض تنظيره و تخطيطه للعمل الإبداعي.

ولقد كان الشعر وما يتصل به من قضايا نقدية وفنون أدبية عامة دأب كثير من الدارسين، ومثار مناقشة، وخلاف بين الشعراء من جهة، وبين النقاد وعلماء اللغة والأدباء من جهة أخرى. هذا ما جعل الحركة النقدية في المغرب العربي تتقدم وتتطور لتظهر في أبهى حللها عند ناقد جزائري- مسيلي- هو ابن رشيق الذي طلع علينا بكتابات عديدة، وعلى الخصوص كتابه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"؛ حيث جاء هذا الكتاب تنويجا لجهود الأدباء والعلماء والنقاد في المغرب والمشرق على حد سواء.

وفي الكتاب السابق الذكر عرض ابن رشيق المسيلي لدراسة الشعر وأفرد له أبوابا مستقلة، تحدث فيها عن ماهيته وفضله وأهدافه، افتتح حديثه بخطبة قصيرة أبدى فيها منهجه في دراسة الشعر يقول: «فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب وأحرى أن تقبل شهادته وتُمثل إدارته... ووجدت الناس مختلفين فيه، متخلفين عن كثير منه، يقدمون ويؤخرون ويقلون ويكثرّون، قد بؤبوه أبوابا مهمة، ولقبوه ألقابا متهمة، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه ليكون "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" إن شاء الله. وعولت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري خوف التكرار، ورجاء الاختصار، إلّا ما تعلق بالخبر، وضبطته الرواية فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه، ليؤتق بالأمر على وجهه، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه، فهو من ذلك إلّا أن يكون متداولاً بين العلماء... ووردت كل فرع إلى أصله، ويتنت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه وكشفت عنه لبس الارتياب به حتى أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه»<sup>(1)</sup>.

ومن خلال هذا القول ندرك أن ابن رشيق قد استهل كتابه من أوله بموقف ذاتي، ونستشف ذلك من خلال عبارته (عولت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري)، فهو يقرّ على أن أحكامه ومواقفه التي ستأتي بعد هذه المقولة ستكون نتيجة ذوق فطري وإحساس مرهف، لذا لم يكن دور ابن رشيق -وهو يعرض لنا هذه الآراء المختلفة- راوية ناقلا، وإنما كان في كل مرة يتدخل ويعطي رأيه هو كناقد حصيف مترن، وأديب متميز ذواقة وكشاعر فنان يحس.<sup>(2)</sup>

لكننا يجب أن نفهم أن تعويله على نتيجة خاطره وقريحة نفسه لا يعني الابتكار، وإنما يعني التصرف في النقل، فيما يجوز فيه التصرف، فإذا لم يكن المنقول كذلك من خبر أو رواية فعندئذ يورده بنصه.<sup>(3)</sup>

وقد تحدث ناقدا الشعر تارة من داخله، وتارة من خارجه، فذكر فضله ومن قاله من الخلفاء الراشدين والفقهاء والقضاة، ثم عرض قضية التكبس بالشعر والأنفة منه، وانتشاره في القبائل، وهذه المسائل جميعها حديث عن الشعر من الخارج، فهي أخبار عن الشعر تعكس موقف ابن رشيق من هذا الفن، ثم ينتقل - بعد ذلك- إلى الحديث عن طبيعة الشعر، فيتحدث عن صناعته وحدّه، واللفظ والمعنى والأوزان والقوافي، وهذا كله حديث عن الشعر من داخله.<sup>(4)</sup>

وقد تميّز مفهوم ابن رشيق للشعر عن رأي النقاد السابقين والمعاصرين له من المغاربة والمشاركة، وقد قال بهذا الرأي بشير خلدون في أحد مقالاته التي نشرت في مجلة الثقافة إذ يقول: «ابن رشيق يعطي للشعر مفهوما متميزا عما فهمه النقاد المشاركة الذين عندما تعرّضوا إلى صناعة الشعر اعتمدوا على اللفظ والمعنى، والوزن والقافية، والتقديم والجديد والسرقات الأدبية... فاهتمت جهودهم- ربما بالشكل أكثر من اهتمامها بالمضمون- قد يكون هذا حكما قاسيا- ولكنني توصلت إلى هذه النتيجة عندما تمعننت جيدا في المعاني الشعرية من خلال ما هو موجود في الكتب الأدبية في المشرق العربي، وهي سابقة على مثيلاتها في المغرب، وإلى مفهوم ابن رشيق للشعر فوجدت أن هذا الناقد تكلم عن الشعر بصفته عالما أدبيا، فقد عرض لهذا المفهوم بإسهاب وبيّنه بأحسن كلام...»<sup>(5)</sup>

فبشير خلدون نجده من خلال هذا القول مفضلاً لابن رشيق رافعا من شأنه على غرار النقاد الآخرين، وذلك - ربما- راجع لكون ابن رشيق قرأ وتفحص أعمال هؤلاء النقاد كل على حدة، ثم أعطى رأيه انطلاقاً من آرائهم، لذا جاء موقفه مشبعاً بثقافة مشرقية ومغربية على حد سواء.

وسنقوم بتلخيص رأي ناقدنا ابن رشيق لموضوع الشعر فيما يلي:

### أولاً: الشعر والنثر:

مهد ابن رشيق لموضوعه بالحديث عن الشعر والنثر من خلال باب سّماه (فضل الشعر)، واستهل لذلك بأن الكلام قسمان يقول: «كلام العرب نوعان: منظوم ومثثور، ولكل منها ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة وردئية، فإذا اتفقت الطبقات في القدر وتساوت في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية، لأن كل منظوم أحسن من كل مثثور من جنسه في معترف العادة»<sup>(6)</sup>.

وفهم من هذا الكلام أن ابن رشيق يرى أن: النثر الجيد هو أفضل من الشعر المتوسط، وأن النثر المتوسط المقبول هو أفضل في الواقع من الشعر السيئ الرديء، وهو من خلال هذا التحديد يظهر ميلانه إلى الشعر وإيثاره بالأفضلية على النثر، محكماً في ذلك ذاته وذوقه؛ كونه شاعراً من كبار الشعراء في عصره، وصاحب ديوان، ولكي يتمكن من نفس القارئ ويستويهه، نجده لا يكتفي بالإشارة العابرة، بل يضرب الأمثلة ويطيل في الشرح قصد الإقناع، فيعرض لذلك بمحسوس يشبهه ويقاس به الكلام هو الدر، إذ يقول: «ألا ترى أن الدر - وهو أخو اللفظ ونسيبه وإليه يقاس وبه يشبه- إذا كان منشوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب... وإن كان أعلى قدراً وأعلى ثمناً، فإذا نظم كان أهون له من الابتدال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منشوراً تبدد في الأسماع، وتدحرج عن الطباع... فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاتة، وازدوجت فرائده وبناته، واتخذة اللابس جمالاً... ويخبأ في القلوب مصوناً باللب، ممنوعاً من السرقة والغضب»<sup>(7)</sup>.

ويفهم من ذلك أن اللفظ أخ للدر، والدر لا قيمة جمالية له إلا إذا ثقب وانتظم في عقد يميزه، والألفاظ كذلك لا قيمة فنية لها إلا إذا انتظمت في قطعة شعرية قائمة على الوزن والقافية؛ أي أن الشعر - عند ابن رشيق - هو ذلك الذي توافرت فيه مقاييس الخروج عن الكلام العادي، وقد عدّ ابن رشيق النثر - في هذا المجال - كلاما عاديا، لأنه غير محكوم بالوزن والقافية.

ونلمس ذوق ابن رشيق واهتمامه بالجمال من خلال تنسيقه لعباراته تنسيقا إيقاعيا مثل: (الابتدال - الاستعمال - اللب - الفيض)، وقد اعتمد ابن رشيق ذلك قصد استهواء القارئ وجعل كلامه أكثر إقناعا.

لكن المأزق الذي وقع فيه ابن رشيق أثناء موازنته بين الشعر والنثر - ملييا حاجاته الذاتية - هو اعتبار اللفظ نواة للشعر، لا تظهر قيمته إلا إذا انتظم في قصيدة، وهذا ما أدى إلى انقسام العملية الإبداعية عنده، لأنه ركز على اللفظ وأهمل شأن المعنى، واعتبر أن اللفظ نواة للمنظوم، والمعنى نواة للمنتور.

وهذه الفكرة نفسها قال بها ابن طباطبا، حيث نجده يقول: «إذا أراد الشاعر بناء قصيدة تخضع المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه»<sup>(8)</sup>، فابن طباطبا - أيضا - يعد المعنى نواة للنثر واللفظ نواة للشعر. فالشعر والنثر - في نظره - متقابلان، الأول محكوم بالوزن والقافية والثاني متجرد منها.

ونستخلص مما تقدم أن حدّ الشعر مازال ينطلق من النثر، وأن التركيز على العناصر الصوتية للشعر مازال متواصلا؛ فكلما اقتربت هذه العناصر من الكلام اقترب الكلام من حيز الشعر، لأن بنية الشعر هي الوزن والقافية، وكلما كان الكلام أكثر اشتتالا على هذه العناصر اقترب من باب الشعر وخرج عن النثر.

نلاحظ أن ابن رشيق انتصر منذ البداية للشعر، وربما يكون ذلك بداية من عنوان كتابه " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده "؛ حيث أنه ألف كتابه هذا في بيئة تعج بالشعر والشعراء، وكان هو نفسه واحدا منهم. وما نريد أن نكتشفه في هذا الكتاب، هو

ذاك التصور الجاد والمبكر للشعر، وهو تصور لا يمت لابن رشيق وحده بمقدار ما يمت لعقلية عامة وذوق عام في عصره، وإنما الفضل الذي قام به هذا الناقد هو جمعه وتخيّره لمادة كتابه من الكتب العديدة التي سبقته أو عاصرته، كما كشف عن ذوقه الرفيع بهذا الاختيار للآراء والتصورات الخاصة للشعر.

### ثانياً: أولية الشعر:

فقد كرر ناقدنا في هذا المجال ما قاله أستاذه عبد الكريم وغيره من النقاد ، يقول: « وكان الكلام كله منشوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة...لتهز أنفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهما أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تمّ لهم وزنه سموه شعراً، لأنهم شعروا به أي: فطنوا.»<sup>(9)</sup>

وقد اعتمد ابن رشيق في هذا النص على ثقافته الأدبية العامة وعلى واقع المجتمع العربي الذي كان عليه إبان عهد البداوة، ومن البديهي أن يكون الكلام العادي الذي أطلق عليه صاحبنا كلمة المنشور سابقاً للشعر، إذ لا يمكن أن تتصور العكس، والشعر يعتمد على الوزن والقافية وما يتبع ذلك من أخيلة وصور وتراكيب فنية خاصة، لا يتأتى لجميع الناس<sup>(10)</sup>.

وفهم من ذلك أن تفضيل ابن رشيق للشعر على النثر لم يكن من ناحية أولية الوجود والظهور، بل كان من ناحية الجانب الفني، لأن الشعر من خلال وزنه وإيقاعه يطرب النفس ويهف الحس، لذا جاء موقف ناقدنا ذاتياً أكثر منه موضوعياً؛ حيث أننا إذا أخذنا بظاهر النص السابق نرى ابن رشيق ينظر إلى موضوع الشعر وعمله نظرة سطحية، لأنه عبارة عن ألفاظ وتعايير وجمل تنظمها أوزان وقواف «فتوهما أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تمّ لهم وزنه سموه شعراً»<sup>(11)</sup>.

وهذا الرأي الذي ذكره ابن رشيق جعل محمد مرتاض يقول: «إنه لا يمكن لأي ناقد أو دارس أن يؤرخ لنشأة الشعر العربي الاستغناء عنه، إذ إنه وعلى الرغم من مرور قرون وقرون عليه، فإنه لا يبرح يسود مختلف كتب تاريخ الأدب العربي، ولم نعلم أن أحداً

استطاع أن يفنده أو يطوره، إذ أن هناك من النظريات من يعرف الاستقرار والخلود كما هو الشأن بالنسبة لهذه، والتي تدل على عبقرية ابن رشيق النادرة، وعلى اطلاع منه واسع، وعلى اجتهاد فكري واضح...»<sup>(12)</sup>

وإذا عدنا لتتفحص نظرة ناقدنا ابن رشيق لمدى تأثير البيئة في الشعر، نجد أن هذا الأخير- الشعر- لم يكن لديه تعبير وجداني يصور وقع الحياة أو الوجود في نفس الشاعر، وإنما هو في كثير من الأحيان وسيلة لدفع الفقر على صاحبه إذ يقول: «وأفضل ما استعان به الشاعر فضل غنى أو فرط طمع، والفقر آفة الشعر... ومنهم من تحمي الحاجة خاطره... فإذا أوسع أنف»<sup>(13)</sup>.

فالشعر مرتبط باحتياجات الشاعر، وكما كثرت عليه العطايا، جادت قريحته بما هو أفضل. لكننا نحس باضطراب ابن رشيق في هذا الحكم لأننا نجد في موضع آخر يأخذ باللائمة على الشعراء المتكسبين بما في ذلك النابغة الذبياني الذي مدح الملوك وقبل صلاتهم، ليرجع بعد ذلك ويدافع عنه بحجة أنه لم يمدح السوقة، وإنما مدح الملوك وقبل أموالهم<sup>(14)</sup>، يقول: «والشعراء في قبولهم مال الملوك أعذر من المتورعين»<sup>(15)</sup>.

وابن رشيق في هذا الموقف يحاول إيجاد مبررات وأعدار ليدافع عن الشعراء، لكن هو في الحقيقة إنما كان يدافع عن نفسه قبل كل شيء؛ لأنه كان شاعر بلاط وصاحباً لأmirين هما: المعز بن باديس الصنهاجي وابنه تميم<sup>(16)</sup>، حيث كان يجتمع إليهما ويقبل منهم العطايا.

### ثالثاً: بنية الشعر:

بعد أن عرّف ابن رشيق الشعر وفضّله على النثر ينتقل ليحدد بنيته، فيقول: « الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهي: اللفظ والوزن والمعنى والقافية، فهذا هو حد الشعر، لأن من الكلام موزوناً مقفى، وليس بشعر لعدم القصد والنية كأشياء أنزلت من القرآن ومن كلام النبي وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر»<sup>(17)</sup>.

ونجد في هذا التعريف الذي وضعه ابن رشيق للشعر محددات من خلاله بنيته وحدوده، أنه يتلاءم مع الطبيعة الفقهية التي تضع النية في طليعة ما تضعه من شروط العمل الذي

يرومه الناقد الجزائري<sup>(18)</sup>، وكان ابن رشيق يتكلم في هذا التعريف من حس ديني خالٍ من أي شائبة.

وقد اهتم ابن رشيق كغيره من النقاد ببنية البيت الشعري، وانطلق في تحديده لهذه البنية من البيئة العربية، فشبهه البيت من الشعر بالبيت من البناء، إذ يقول: «والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدرية، وساكته المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون...»<sup>(19)</sup>.

ف نجد ابن رشيق من خلال هذا القول يقرب الفن إلى المتلقي ويخاطبه بما يفهم عنه ممثلاً له بالبيئة التي يحيا فيها، وذلك حسب التصور التالي<sup>(20)</sup>.

البيت من البناء	البيت من الشعر
سأكنه	المعنى
↑	↑
بأبه	الدرية
↑	↑
دعائمه	العلم
↑	↑
سمكه	الرواية
↑	↑
قراره	الطبع

ومن خلال هذا التشبيه نقول إن حرص ابن رشيق الشديد على إفهام القارئ، هو الذي دعاه إلى هذا التشبيه الحسي الذي تميز به في جلّ أبواب عمده.



### رابعاً: الوزن في الشعر:

تطرق ابن رشيق إلى الحديث عن الأوزان في مواضع متعددة من كتاب "العمدة" بجزأيه، بل إنه خصص له باباً كاملاً سماه (باب الأوزان) وكان تركيزه فيه على قيمة الوزن في الشعر، والتي يستمدّها أحياناً من منطق الحياة العامة ومن الأحكام الجمالية المطلقة<sup>(21)</sup>، فكان الشعر في رأيه أفضل من النثر إلاّ لما فيه من (زينة الوزن والقافية)<sup>(22)</sup>.

وكلمة زينة هنا توحى لنا بأن الوزن جيء به لتزيين الكلام فقط، أي أنه شيء مضاف إلى الكلام من الخارج، لا غاية له إلاّ التجميل والتزيين.

واختيار ابن رشيق للنظم والوزن هو الذي جعله يعطي الأفضلية للشعر وإن تساوى معه النثر في الطبقة، ولا يعطي مبرراً لذلك إلاّ قوله: «كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية»<sup>(23)</sup>، وهذا الحكم يبدو بعيداً عن المنطق، ولا يعتمد سوى البعد الجمالي.

وبعد تصفحنا لباب الأوزان نجد أن ابن رشيق يعيد نظره في الوزن ليضعه شرطاً أساسياً لا تقوم صنعة الشعر إلاّ به فيقول: «الوزن أعظم أركان حدّ الشعر، وأولها خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالبا لها ضرورة»<sup>(24)</sup>، أي أن الوزن في نظره ركن من أركان الشعر، بل أعظمها أهمية، وأجلها فناً.

وحيث يتحدث ابن رشيق عن الزحاف نجده ينصح الشاعر ويقدم له قانون العمل الذي يضبطه حسب رأيه فيقول: «لا ينبغي للشاعر أن يركب مستعمل الأعراب ووطيئها، وأن يستحلي الضروب ويأتي بالطفها وأخفها مسمعا، وأن يجتنب عويصها ومستكرهها، فإن العويص مما يشغله، ويمسك من عنانه ويوهن قواه ويخرجه عن مقصده»<sup>(25)</sup>.

ومن خلال هذا التعريف تتضح لنا نظرة ابن رشيق لصناعة الشعر، وتبدو أنّها نظرة تعتمد على الذوق أساساً؛ فالدعوة إلى اللجوء إلى (مستعمل الأعراب) دون تحديد لنوعها أو سبب استعمالها دون سواها يمثل رغبة صاحب العمدة في مراعاة الذوق العام، ثم يفتح المجال أمام الذوق الشخصي باعتداده كلمة (يستحلي) دون تحديد لنوع الحلاوة وأسبابها، ثم يعزز ذلك بجملة من الصفات وأسماء التفضيل مثل (ألطف - أخف - عويص - مستكره..) ودائماً دون ضبط لمكونات تلك الصفة، مما يجعل الذوق يبقى هو سيد الموقف.<sup>(26)</sup>

### خامساً: بنية القصيدة:

لقد أولى ابن رشيقي - كغيره من النقاد- اهتماماً بارزاً ببناء القصيدة وحاول أن يقف على أهم أجزائها، فخصص لها باباً في عمدته سماه (باب: المبدأ والخروج والنهاية). ونحن نحاول في هذه النقطة أن نصل إلى رأي ناقدنا في كل جزء على حدة:

أ- المبدأ: ركز صاحب العمدة على ضرورة حسن الابتداء وحسن التخلص، فقال: « الشعر قفل أوله مفاتحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السمع وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة...»<sup>(27)</sup>، ثم يدعم ناقدنا رأيه بأمثلة عديدة من الشعر العربي، ويعتبر أن أفضل ابتداء هو ما أورده امرؤ القيس في قوله<sup>(28)</sup>:

قَفَا تَبَكِّ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ  
بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلِ

وقال عنه ابن رشيقي: « هو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر، لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد»<sup>(29)</sup>. كما لاحظ ابن رشيقي - أيضاً- إن مذاهب الشعراء تختلف في افتتاح القصائد بالنسيب؛ فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقع البين وصفة الطلول والتشوق بحنين الإبل... أما أهل الحاضرة فيأتي أكثر تغزلهم في ذكر الصدود والهجران والواشين والشراب وغيره.<sup>(30)</sup>

ومن هنا نلمس تدعيم ابن رشيقي لفكرة تأثير البيئة في الشعر، وما لها من وقع على نفسية الشاعر، إلا أن ما نلاحظه على ابن رشيقي هنا، هو قوله فقط بالشعر المطبوع متجاوزاً بذلك ما يلجأ إليه الشاعر من تكلف في خلقه للنص الشعري، لكن ناقدنا تظن بعد ذلك وأعاد نظره في هذا الرأي، ثم تبته على أن أهل البادية قد يتغزلون على طريقة أهل الحضر، وأن أهل الحضر قد يتغزلون على طريقة أهل البادية تظرفاً وحبا في التقليد.<sup>(31)</sup>

ونظراً لهذا التذبذب والاضطراب في الحكم الذي قدّمه ابن رشيقي نقول إن ناقدنا لم يسلك في رأيه أي مقياس أو قانون، بل كان حكمه نتيجة لذوقه الفطري وحسه الفني المرهف.

ثم يضيف ناقدنا أنه: «من عيوب الابتداء أنك تجد بعض الشعراء لا يجعلون لكلامهم بسطا من النسيب، بل يهجم على ما يريد مكالفة ويتناول مصالحة، وذلك ما يسميه النقاد بالوثب والبتر والقطع..»<sup>(32)</sup>، إلا أننا نقول هنا أنه إذا كان هذا من عيوب الابتداء عند ابن رشيق، فهو قد يكون عند ناقد آخر مفضل ومحب، كما يمكن القول أيضا إن ابن رشيق في هذا الرأي لا يخرج عن نطاق الشعر الجاهلي الذي اعتاد أصحابه البدايات الطللية وكاء الأحاب، حيث يمكن أن نجد قصائد قيلت بعد ذلك العصر خالية من هذا الابتداء إلا أنها من أحسن ما عرف في المبدأ، من مثل قصائد الشعراء المولدين وخاصة أبي تمام.

ب- الخروج: يعرفه صاحب العمدة فيقول: «هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف مفرقا بينه وبين الاستطراد الذي يقول عنه: أن يبني الشاعر كلاما كثيرا على لفظة من غير ذلك النوع، يقطع عليها الكلام وهي مراده دون جميع ما تقدم ويعود إلى كلامه الأول»<sup>(33)</sup>.

فإذا كان العديد من النقاد قد ربطوا بين المصطلحين، فإن هذا التفريق الذي جاء به ناقدنا ابن رشيق يوحي لنا بمدى ثقافته وتمكنه من قضايا اللغة العربية خاصة ما يربط منها بالمصطلحات ومعانيها، ويضرب لنا ناقدنا مثلا عن الخروج قول البحري(34):

لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمِثُّ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُؤَكَّلٌ  
إِنَّ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ عُمُرِيَّةٍ مُدُّ سَاسَهَا الْمُتَوَكَّلُ

حيث استطاع الشاعر أن يخرج من غرض النسيب إلى مدح المتوكل مباشرة، دون أن يخل ذلك بنظام القصيدة وتركيبها.

ج- الانتهاء: ويقول فيه ابن رشيق: «هو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسع... وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه»<sup>(35)</sup>، فابن رشيق في هذا القول يشترط حسن الختام لدى الشاعر، بل يزيد على ذلك ليجعله واجبا عليه، واستخدام ابن رشيق لعدة مصطلحات مثل: (البداء- الخروج - الانتهاء - مفتاح - قفل...) دليل على النظرة الموحدة للقصيدة والرغبة في لم شتاتها، فهي كل موحد يدل على

نظرة لم تكن واضحة المعالم من قبل.<sup>(36)</sup>

وإذا عدنا لمصطلح (بنية) الذي استخدمته المناهج الحديثة، فإننا نجد ابن رشيق قد أشار إليه في عمدته وقسمه إلى قسمين (إفرادية وتركيبية)، هذا ما جعلنا نحاول الوقوف على رأيه فيها.

### \* البنية الإفرادية:

ونقصد بها مجموع الكلمات التي يعتمدها الشاعر في بناءه للقصيدة، وهي ما يطلق عليها المعجم الشعري، لذا اهتم بها العديد من النقاد، وبأثرها في البناء الشعري العام، فتعرض لها بعضهم مدافعا عن قيمتها، عادةً إياها اللبنة التي في ضوئها يتأسس البناء الشعري، لما تحمله من إيجاعات، ولما تشتمل عليه من ومضات<sup>(37)</sup>، ويقول ناقدنا ابن رشيق في هذا المضمار، موضحا أثر الجمالية في الشعر مستعينا بما قاله الجاحظ: «قال أبو عثمان الجاحظ: أجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان».<sup>(38)</sup>

إلا أن رأي ابن رشيق يتضح وبشكل أجمل في تعليقه على ما تفوه به الجاحظ حين عقب عليه قائلا: «وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لَدَّ سماعه وخفَّ مُحتمله وقرب فهمه وعذب النطق به وحلى في فم سامعه»<sup>(39)</sup>، فنجد ابن رشيق من خلال هذا التعليق يؤكد مقولة الجاحظ السابقة، ويشير إلى أثر ذلك في نفس المتلقي الذي يُلدِّ له السماع ويحلوه الإصغاء، لما يتوفر عليه كلام الباث من خفة المحتمل، وقرب فهمه، ذلك أن الخطاب الشعري كي يتسم بالجمال يستلزم أن تتوفر فيه عناصر تكون هذه المسحة الجمالية، ومن بين هذه العناصر نذكر: تلاحم الأجزاء، وسهولة المخارج.

فابن رشيق إذا: يولي البنية الإفرادية أهمية بالغة، ذلك أنه لا يفرق بين اللفظة وشقيقتها في تأسيس البنية التركيبية، فالإفرادية عنده هي السبيل الأمثل المفضي إلى بناء سوي. وما هذا إلا حكم شخصي قد يختلف فيه غيره من النقاد، لذا جاءت نظرة ابن رشيق في البنية نظرة ناقد متذوق يدرك عناصر الجمال ويعرف أسرارها وخباياها، فهو شاعر فنان قبل أن يكون ناقدًا يستعمل ذوقه كأديب.

\* البنية التركيبية: ونعني بها الطريقة أو الكيفية التي يسلكها الشاعر في ترتيب جملة وأبياته الشعرية، ونستطيع أن ندرك موقف ابن رشيق في هذه البنية من خلال اعتماده على حاسته، حيث نجد بعد أن يستشهد بالترتيب الذي عيب على امرئ القيس في قوله<sup>(40)</sup>:

كَأَيِّ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتِ خَلْخَالٍ  
وَلَمْ أَسْبِ الرِّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِحَيْلِي كُرَى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ

فيحكي ويقول: «أن رجلا بغداديا يعرف بالمنتخب لم يُرَقه هذا الترتيب الجمالي مما جرأه على إعادة ترتيبها حسب ذوقه وحكمه:

كَأَيِّ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقُلْ لِحَيْلِي كُرَى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ  
وَلَمْ أَسْبِ الرِّقَّ الرُّوِّيَّ لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتِ خَلْخَالٍ

وهذا الحكم من البغدادي لم يرح ابن رشيق وحرّ في نفسه- كونه من أنصار امرئ القيس دوما- فشتع برأيه وسخف حكمه، قال: «قول امرئ القيس أصوب ومعناه أعز وأغرب لأن اللذة التي ذكرها إنما هي الصيد، هكذا قال العلماء، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء، فجمع في البيت معنيين ولو نظمه على ما قاله المعترض لنقص فائدة عظيمة... وكذلك البيت الثاني لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشوا لا فائدة فيه»<sup>(41)</sup>.

ويبدو جليا أن ابن رشيق - من خلال هذا القول- يحلل الشعر بناء على مقاييس جمالية قوامها الذوق الأدبي، فجاء متفردا مستقلا بحكمه، غير مقلد أو متأثر بآراء السابقين عليه.

ومما سبق يمكننا القول إن ابن رشيق القيرواني من أبرز النقاد الذين اهتموا بالشعر ومهمته وكيفية إبداعه، فكان سيد عصره كونه ناقدا وشاعرا، مما جعله يحكم ذوقه وفطنته في بعض الأمور المتعلقة بالشعر و الشاعر على حد سواء.

## الهوامش و المراجع

- (1) ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت ط1 2001 ، 10/1.
- (2) بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، توزيع دار الجيل، بيروت، 1979، ص 107.
- (3) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة ، بيروت، ط2 ، 1972، ص 444-445.
- (4) الشيخ بوقرية: الشعر وقضاياها عند أبي علي الحسن بن رشيق المسيلي، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران- الجزائر ، 2005، ص 50.
- (5) ينظر: بشير خلدون، " ابن رشيق أحد بناء النهضة الفكرية والعلمية للمغرب العربي الموحد"، مجلة الثقافة، ع90، إصدار وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، ديسمبر 1985، ص 62-63.
- (6) ابن رشيق، العمدة، 12/1.
- (7) م ن ، 12/1.
- (8) ابن طباطبا، عيار الشعر، تحق طه الحاجري و محمد زغلول سلام ، منشورات المكتبة التجارية ، مصر ، 1956، ص 05.
- (9) ابن رشيق، العمدة، 12/1.
- (10) بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص 111-112.
- (11) م ن، ص 112.

- (12) محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 29.
- (13) ابن رشيق، العمدة، 192/1.
- (14) بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص 122-123.
- (15) ابن رشيق، العمدة، 71/1.
- (16) بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص 123.
- (17) ابن رشيق، العمدة، 108/1.
- (18) محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص 30.
- (19) ابن رشيق، العمدة، 109/1.
- (20) محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص 31.
- (21) محمد عبد العظيم، في ماهية النص الشعري- إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1994، ص 46.
- (22) ابن رشيق، العمدة، 12/1.
- (23) م ن، ص ن.
- (24) م ن، 121/1.
- (25) م ن، 125/1.
- (26) ينظر: محمد عبد العظيم، في ماهية النص الشعري، ص 54.
- (27) ابن رشيق، العمدة، 195/1.
- (28) امرؤ القيس، الديوان، تح، حنا فاخوري، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت، ص 25.
- (29) ابن رشيق، العمدة، 195/1.
- (30) م ن، 195/1.
- (31) ينظر: م ن، 202/1.
- (32) ينظر: م ن، 205/1.

- (33) ينظر: م ن، 1/207-208.
- (34) البحري، الديوان، تخ، حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط1، 1995، 211/2.
- (35) ابن رشيقي، العمدة، 1/210.
- (36) صالح مفقودة، " رأي ابن رشيقي القيرواني في بنية القصيدة ومكانته في النقد الأدبي"، الملتقى الثاني لابن رشيقي المسيلي، دار الثقافة، مسيلة، الجزائر، 16-17 ديسمبر 2003، ص03.
- (37) محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص74.
- (38) ابن رشيقي، العمدة، 1/224.
- (39) م ن، 224/.
- (40) امرئ القيس، الديوان، ص65.
- (41) ابن رشيقي، العمدة، 1/225.